من الكوزموبوليتيّة المدينيّة إلى "المدن المختلطة"، وصولاً إلى النقاء العرقيّ

جويل بينين*

عقود من الهيمنة الصهيونيّة العمّاليّة واستملاك بعض مكوّنات خطابها من قبل الحركة الاستيطانيّة في مرحلة ما بعد العام 1967، حجبت حقيقة أن الغالبية العظمى من المستوطنين الصهاينة كانوا سكّان المدن على الدوام. مع انتقال محاور التماسّ من المناطق الريفيّة إلى المدن (لا سيّما خلال النكبة، وحتّى أكثر من ذلك بعد العام 1967)، انتقل منحى المشروع الاستيطانيّ الصهيونيّ من التعايش المشترك المدينيّ والعنف الريفيّ في الحقبة العثمانيّة الأخيرة، نحو تكثيف العنف في قلب المدن.

في العام 1880 تقريبًا، سكن فلسطين نحوُ 30,000 يهوديّ غير صهيونيّ (وثلثهم من المواطنين العثمانيين)، غالبيّتهم في القدس، وقلّة منهم في صفد وطبريّا وحيفا ويافا. الكثير من هؤلاء اندمجوا في نسيج الحياة المدينيّة، وتحدّثوا باللغة العربيّة، وبنوا علاقات اجتماعيّة واقتصاديّة مع جيرانهم العرب. شاركت النخبة التجاريّة والثقافيّة السِّفارديّة في المشروع المدنيّ الذي أُطلِق من خلال الثورة الدستوريّة في العام 1908. هذه العلاقات الجيّدة بين العرب واليهود شكّلت عائقًا أمام تحقيق المشروع الصهيونيّ، وعليه فقد بُذلت مساعٍ حثيثة في سبيل "صَهْيَنة" هذه المجتمعات.

التعايش المشترك في المدن / الصراع المدينيّ

يمضي أحد الاعتقادات السائدة إلى الاستنتاج أنّ المجازر التي نُفّذت ضدّ اليهود المتديّنين (وغالبيّتهم ليسوا صهاينة في القدس والخليل وصفد إبّان" ثورة البُراق" في العام 1929، تبرهن استحالة التعايش المدينيّ المشترك بين اليهود والعرب. الفيلم الذي أخرجه نوئيت ودان غيفاع "دفاريم

شِرائيتي بحيفرون" (أمور رأيتها في الخليل) يوثّق رواية مغايرة، إذ يستذكر عدد من اليهود الخليل في حقبة ما قبل العام 1929 على النحو التالي:

> جنّة تحيط بها كروم العنب، وقد عاش فيها اليهود السفراديّون والعرب في تعايش مشترك مثاليّ. الأشكناز الذين أقاموا منذ مدّة طويلة في الخليل حظوا هم كذلك بمعاملة طيّبة من قِبل العرب. الوحيدون الذين أثاروا حفيظة العرب كانوا... طلبة الحاخام لوبافيتش الذين جاءوا لافتداء الأراضي في البلاد المقدّسة وأسّسوا مجتمعًا محليًّا في الخليل (ليفنيه، 2000).

زد على ذلك أنّ الأغلبيّة العظمى من سكّان الخليل اليهود (وعددهم يتراوح بين 600 وَ 800) قد نجوا أحداث الثورة. ويفيد توم سيغيف أنّ 28 عائلة عربيّة آوَتْ 435 منهم في منازلها. ويستذكر أحد هؤلاء الناجين: "لقد أصيب بعض العرب بجروح خلال دفاعهم عن جيرانهم". د. عبد العالّ المصريّ الجنسيّة تلقى رسالة شكر على العناية الطبّيّة التي قدّمها لليهود، بالإضافة إلى إيوائه إحدى العائلات في منزله (Segev, 2000, pp. 325-326).

في نهاية القرن التاسع عشر، بلغ تعداد سكّان مدينة حيفا نحوَ ستّة آلاف نسمة، ألف من بينهم من اليهود، ومع تحوّل امدينة إلى المركز الصناعيّ والميناء الرئيسيّ في فلسطين الانتدابية، بدأ العرب واليهود يتقاطرون للسكن فيها، وعملوا جنبًا إلى جنب في ورش سكّة الحديد، وفي الميناء، وفي شركة مصافي البترول الموحدة المحدودة الضمان، وفي العديد من المصانع الصغيرة.

عارض بن غوريون وزمرته في قيادة الهستدروت قيام النقابات العمّاليّة المشتركة لليهود والعرب، حتّى في أماكن العمل المختلطة. على الرغم من ذلك، حتّى العام 1924 انضمّ مئات من عمّال سكّة الحديد العرب لنقابة عمّال سكّة الحديد والبريد والتّلغراف التابعة للهستدروت (URPTW). أطلقت قيادة هذه النقابة العمّاليّة حملة تهدف إلى تغيير بنْية الهستدروت بغية السماح للعرب بالانضمام إلى النقابات العمّاليّة التابعة لها، لكن مع نهاية العام 1925 انفصل غالبيّة العرب عن URPTW بسبب مطالبة الهستدروت تفضيل تشغيل اليهود في الوظائف الشاغرة. الإصرار على "العمل العبريّ" قوّض التضامن العمّاليّ بين العرب واليهود. مع ذلك، حتّى العام 1945/1944 شنّت نقابة عمّال سكّة الحديد والبريد والتلغراف URPTW وجمعيّة العمّال العرب الفلسطينيّة إضرابات مشتركة، بما في

ذلك الاستيلاء على ورشات سكّة الحديد لمدّة ثلاثة أيّام متواصلة. أشادت عصبة التحرّر الوطنيّ الفلسطينيّة بهذه الخطوات المشتركة، ورأت فيها برهانًا عن قدرة العمّال العرب واليهود على التعاون إذا ما جرى وضع العنصريّة والتعصّب القوميّ جانبًا(Lockman, 1993).

في العام 1561، منح السلطان العثمانيّ سليمان القانونيّ (الكبير) يوسيف ناسي امتياز جباية الضرائب عن المزروعات في طبريّا وصفد، وشجّعه على توطين اللاجئين اليهود من إسبانيا في تلك المناطق. تحوّلت صفد إلى مركز لدراسة "الكبالاه" ولإنتاج الأنسجة الصوفيّة. اندمج الكثير من السّفاراديم في بيئتهم العربيّة، لكونهم جاءوا من أصول أندلسيّة. غالبيّة السكّان اليهود غادروا صفد بعد الهزّة الأرضيّة التي ضربت المكان في العام 1759. مع نهاية القرن التاسع عشر، ارتفع عدد سكّان مدينة صفد اليهود ليبلغ 3,700 نسمة، أي ما يعادل 40% من المجموع السكّانيّ العامّ في المدينة. في تلك الفترة، لم تعد صفد مركزًا للإنتاج أو التجارة، وتحوَّلَ المجتمعان العربيّ واليهوديّ فيها إلى مجتمعين محافظين ومنعزلين. وعليه لم تتوافر الكثير من الفرص للتعاون بين اليهود والعرب كما في حيفا ويافا والقدس، ويبدو أنّ العلاقات بين الطرفين هناك لم تكن طيّبة.

إبّان ثورة العام 1929، قام الإمام في صفد بتحريض المسلمين للهجوم على اليهود، وجرى اغتيال 18 من بينهم. في العام 1940، نشب خلاف حول ملعب في ساحة مدرسة يهوديّة قامت بتمويلها بيرثا غوغينهايمر التي كانت عضوة بارزة في منظّمة هداسا النسائيّة الأمريكيّة، ومقرّبة من رئيستها إيرما ليندهايمر التي أيّدت إقامة دولة ثنائيّة القوميّة في فلسطين. بدأ الأولاد العرب يقصدون الملعب، لكن بعض الأهالي اليهود وقائد الجالية اليهوديّة الحاخام بودهوتسير صمّموا على منعهم من ذلك. احتجّ مندوبو مؤسّسة غوغينهايمر على ذلك، وادّعوا أنّ الأمر يناقض روح وصيّة غوغينهايمر، لكن دونما جدوى (Segev, 2000, pp. 390-391). هذا العمل ربّما شكّلَ مصدرَ وحي للرسالة التي بعث بها الحاخام شموئيل إلياهو وَ 17 من الحاخامات في العام 2010، والتي حثّوا فيها اليهود على عدم تأجير الشقق في المدينة للعرب.

التطهير العرقيّ في المدن

شكّل تدمير الحياة المدينيّة في فلسطين أحد الجوانب المهمّة للنكبة. نحوُ ثلث لاجئي العام 1948 كانوا من سكّان المدن. ما يتراوح بين 35,000 وَ 45,000 من هؤلاء كانوا من سكّان غربيّ القدس وغالبيّتهم من الطبقة الوسطى والنخَب، وفرّ هؤلاء أو هُجّروا في الفترة الواقعة بين كانون الثاني ونيسان؛ وطُرد نحوُ 150 ألفًا من الفلسطينيين من يافا وحيفا وعكّا وطبريّا وبيسان وصفد خلال قيام كتائب "الهَجاناه" بتطبيق الخطّة "دالِت" في شهرَيْ نيسان وأيّار؛ وهُجّر ما بين 40,000 وَ 50,000 فلسطينيّ من اللدّ والرملة خلال حملة "داني" في شهر تمّوز.[1]

توثّقُ ذكريات يوسيف نحماني (التي قام بيني موريس بتأويلها، وقامت داليا كاربيل بعرضها في فيلم مصوّر) توثّق المثال الأوّل والأكثر وضوحًا على التدمير المتعمّد للحياة العربيّة اليهوديّة المدينيّة في طبريّا *(Karpel, 2005; Morris, 1990, pp. 159-211)*. فعلى الرغم من صفقاته المشبوهة في "افتداء أراضي الجليل"، كان يوسيف نحماتي الذي عمل كمتعهّد مشتريات للكيرين كييمت (الصندوق القوميّ اليهوديّ) يتحدث العربيّة بطلاقة، وكانت تربطه علاقات جيّدة بالكثير من وجهاء المدينة العرب، وشغل مقعدًا في المجلس البلديّ. في مطلع شهر نيسان من العام 1948، رفض قادة السكّان العرب (وعددهم 6,000 نسمة-ما يعادل تقريبا 50% من السكّان) السماح لجيش التحرير العربيّ بدخول المدينة. على الرغم من ذلك، بدأت قوّات "الهجاناه" بمهاجمة المدينة ورفضت عرض نحماني للتوسّط من أجل عقد الهدنة، وهو ما أدّى إلى فرار جميع سكّان المدينة العرب. سافر نحماني بعد ذلك إلى تل أبيب، لمقابلة بن غوريون الذي قدم له التعليمات التي تتماشى مع أهداف "الهجاناه" في الحرب. مع عودته إلى طبريّا، اقترح نحماني هدم جميع البيوت العربيّة عن بكرة أبيها، وقام ابنه شمعون (خبير التفجير في "الهجاناه") بتنفيذ المَهمّة.

في أواخر العام 1940، شكّلت يافا التجمّع المدنيّ الأكبر في فلسطين (قرابة 70,000 نسمة). 2,000 من السكّان اليهود (وعددهم 30,000 نسمة) كانوا من أحفاد المواطنين اليهود العثمانيّين

[1] استخلصت البيانات من التعداد السكّانيّ البريطانيّ من العام 1944 في: **سكان فلسطين: التاريخ السكاني وإحصائيات الحقبة العثمانية الأخيرة وحقبة الانتداب** (McCarthy, 1990, p. 163) و " المدينة وأطرافها الريفيّة" داخل: **القدس 1948: الأحياء العربية ومصيرها خلال الحرب** (تماري 1999، ص 85). النسبة تعتمد على تقديرات الأمم المتّحدة بوجود 711,000 لاجئ.

الذين سكنوا المدينة في العام 1880. يعرض الفيلم الوثائقيّ **يافا: ماركة البرتقال** للمخرج إيال سيفان التعاون بين اليهود والعرب في قطاع تصدير الحمضيّات خلال سنوات الأربعينيّات (Osnat & Sivan, 2009). قام الاستيطان الصهيونيّ والاحتلال العسكريّ بتحويل يافا من مدينة كوزموبوليتيّة عثمانيّة إلى حيّ فقير من أحياء تل أبيب اليهوديّة.

في الخامس والعشرين من نيسان عام 1948، وبينما كان البريطانيّون يستعدّون لمغادرة فلسطين، بدأت منظّمة "إيتسل" بهجوم استغرق ثلاثة أيّام على يافا، وأطلقت خلاله 20 طنًّا من قذائف الهاون العشوائيّة على المدينة. الهجوم المتزامن الذي شنّته قوّات "الهجاناه" على القرى المجاورة أغلق جميع طرق الهرب على السكّان، باستثناء مَنْفذ واحد هو البحر. عندما استسلمت يافا في الرابع عشر من أيّار، لم يتبقَّ فيها سوى 4,000 من العرب. زار بن غوريون المدينة في الثامن عشر منه، وكتب في يوميّاته بكلّ وقاحة (وكأنّه لا يعلم البتّة ما كانت الكتائب العسكريّة الصهيونيّة تقوم به): "لم أفهم ألبتّة: لماذا هَجَرَ سكّانُ يافا المدينة"؟ (Morris, 2004, p. 219)

في طبريّا، كما في صفد وبيسان، كان التطهير العرقيّ مطلقًا. "المدن المختلطة" الإسرائيليّة هي نتاج لتطهير عرقيّ غير مكتمل، وتوطين مكثّف للمهاجرين اليهود الشرقيّين في يافا وعكّا واللدّ والرملة. أما في القدس وحيفا فقد جرى غالبًا الاستيلاء على البيوت العربية الراقية والأنيقة من قِبَل يهود من أصل أوروبيّ (أشكناز).

بعد العام 1967، جرى تكثيف الاستيطان الاستعماريّ المدينيّ الصهيونيّ. المستوطنات المدينيّة التي تقع في القدس ومحيطها، وكذلك أريئيل وبيتار عيليت ومعاليه أدوميم، ومورديعين عيليت وكريات أربع تُؤوي نحو 350,000 مستوطن من أصل قرابة 550,000 مستوطن في الضفة الغربية. واستمرارًا للنموذج الذي أُسِّس في العام 1909 في تل أبيب، جميع هذه المستوطنات يهوديّة خالصة.

* **جويل بنين** هو بروفيسور في قسم التاريخ على اسم دونالد مكلاكلان في جامعة ستانفورد.

المراجع

Karpel, D. (Director). 2005. *ha-Yomanim shel Yosef Nachmani* [Film]. New York: Icarus/First Run.

Livneh, N. (2000, July 9). Hebron Diary. *Haaretz*.

Lockman, Z. (1993). Railway Workers and Relational History: Arabs and Jews in British-Ruled Palestine. *Comparative Studies in Society and History 35*(3), 601-627.

McCarthy, J. (1990). *The Population of Palestine: Population History and Statistics of the Late Ottoman Period.* New York: Columbia University Press.

Morris, B. (1990). *1948 and After: Israel and the Palestinians*. Oxford: Oxford University Press.

Morris, B. (2004). *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited.* Cambridge: Cambridge University Press.

Osnat, T. (Producer) & Sivan, E. (Director). (2009). *Jaffa: Sipuro shel mutag* [Film]. Trabelsi Productions & Alma Films.

Segev, T. (2000). *One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate.* New York: Metropolitan Books.

Tamari, S. (1999). The City and its Rural Hinterlands. In S. Tamari (Ed.), *The Arab Neighborhoods and their Fate in the War.* Jerusalem: Institute of Jerusalem Studies.